﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [الأنعام: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين هلاكِ المكذِّبين، وبيانِ تكذيب النَّبيِّ ﷺ رغم المعجزاتِ

لمّا كان الرّسول ﷺ شديدَ الحرص على إيمانهم؛ كان لسانُ الحالِ يقتضي أن يقولَ: "أنزِلْ عليهم يا ربّ ما ينتقلون به منَ النّظر بالفكر إلى العيان، كما اقترحوا عليَّ، فأخبره أنّهم لا يؤمنون بذلك"[1]، ولو أنزلَ عليهم كتابًا في صحيفةٍ يلمسونه حقيقةً، ويرونه عيانًا، لكنّهم كفروا به، وكانت مقالتُهم فيه أنّه سحرٌ، وتمويهٌ، وخيالٌ مبينٌ ظاهرٌ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَزَّلۡنَا﴾: فعلٌ ماضٍ مُضعّف، الجذرُ اللّغويُّ منه (نَزَلَ)، والنُّزولُ هو الانتقالُ من علوّ إلى سُفْل، والأصلُ في معناه دلالتُه على هبوطِ شيءٍ ووقوعِه، ونزل عن دابّته نزولاً، ونزل المطرُ منَ السَّماء نُزولًا، و"النُّزول في الأصل هو انحطاطٌ من عُلوّ... ونزل في مكان كذا: حطَّ رحله فيه"[2].

و"المعنى المحوريّ انحدارٌ أو انفصال، وخلوصٌ إلى مقرّ أو حيّز يوجدُ فيه بقوّة، فالوجودُ معنى لزوميّ هنا، كالنّزول في المنزل"[3]. ونزّلنا في الآية يدلُّ على التّنزيل منَ السّماء، وأنّه ليس مكتوبًا في الأرض[4]، إلّا أنّه ليس نُزولًا حسّيًّا، مثلما دلَّ عليه التّفسيرُ اللّغويُّ في هبوطِ الشّيء، إنّما عبّر عن ذلك؛ لعلوّ شأن المنزَّل.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/24.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (نزل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزل).
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/25.

2) ﴿قِرْطَاسٍ﴾: اسمٌ خماسيٌّ، جذرُهُ اللّغويُّ من (قَرْطَسَ)، خلافًا لمَن يرى أنّه مُعَرَّبٌ، وهو معروفٌ يتّخذُ من بَرْديٍّ مصرَ للكتابة، وهو "رَقٌّ ينبسطُ ممتدًّا يُخرَقُ بسهم، أو يُؤَثَّر فيه بما يشبهُ ذلك، وهو الكتابةُ بقلم له سنٌّ دقيقٌ يُرسَمُ فيه"[1].

والقِرْطاسُ ما "يُكتَبُ فيه كالرَّقّ والكاغَد ونحوِها، لا كالخشبة والحجر، وإن كانَ يُكتَبُ فيه؛ ولذلك قال ابن عرفة: العربُ تسمّي الصّحيفةَ قِرطاسًا من أيّ شيء كانت، فأجد في مسمّاه الصّحيفة، وهي مختصّةٌ بما يُطوَى ويُنشَر"[2]. وقد نشأتِ الكتابةُ نقشًا في الحجارة، وخَدْشًا في الطّين، ورسمًا على العُسُب.

ومعنى القِرْطاس في الآية: الصّحيفةُ الثّابتةُ الّتي يُكتَبُ فيها بقلم له سنٌّ دقيقٌ يُرسَمُ فيه[3].

3) ﴿سِحْرٌ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، أو مصدرٌ، الجذرُ اللّغويُّ منه (سَحَرَ)، وله معانٍ عديدة، منه: معونة الشّيطان، وأخذة العين، والبيان في الفطنة، وله أصلٌ لمعناه وهو الخداعُ، والتَّخييلُ، والإيهامُ، وإخراجُ الباطلِ على صورةِ الحقِّ، وهو أيضًا "الخداعُ وتَخْييلاتٌ لا حقيقةَ لها، نحو: ما يفعله المشعوذُ بصرف الأبصارِ عمّا يفعلُه لخفّة يدٍ، وما يفعلُه النّمّامُ بقولٍ مُزخرَفٍ عائقٍ للأسماع"[4].

ومعنى السّحر في الآية؛ أي: "ما هذا الّذي جئتنا به إلّا سحرٌ سحرتَ به أعيننا، ليست له حقيقةٌ ولا صحّةٌ"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبرُ الحقُّ ﷻ عن سابق عِلمِه وإحاطتِه بحال هؤلاء الكافرين بأنَّ

عِظَمُ عنادِ المشركين للنَّبيِّ الأمينِ، ومكابرتهم، رغمَ الأدلَّةِ المفحِمَةِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرطس).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (قرطس).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرطس).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سحر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 11/265.

تكذيبَهم ليس لقصورٍ فيما جئتَهم به أيُّها الرّسول، ولا لجهلٍ منهم بذلك، وإنّما هو ظلمٌ وبغيٌ منهم وعنادٌ واستكبارٌ، فلو أَراهُمُ اللّهُ بيِّنةً محسوسةً في إنزال كتابٍ في صحيفةٍ مكتوبةٍ يلمِسونه بأيديهم يحوي مرسومَ التّنزيل، وبَيَّن لهم كلَّ طريقٍ وسبيلٍ، لما ازدادوا إلّا كفرًا وعنادًا، ولَنطقَتْ ألسنتُهم بأنَّ ما نزلَ ما هو إلّا منَ السّحرِ والتّخييلِ والإيهامِ، وزادوا من وقاحتهم بِنَعْتِه بالواضحِ المبينِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ تلوينِ الخطابِ في معنى (الواو):

الـعـطـفُ على أن تـكـونَ الآيـةُ أوضـحَ الآيـاتِ، دلالةٌ على صدقِ النبوَّةِ

الآيةُ جملةٌ مستأنَفةٌ سيقَت بطريق تلوينِ الخطابِ؛ لبيانِ شدّة شَكيمَتِهم في المكابرة، وما يتفرّعُ عليها منَ الأقاويل الباطلةِ، إثرَ بيانِ إعراضِهم عن آيات اللّهِ تعالى، وتكذيبِهم بالحقّ، واستحقاقِهم بذلك لنزول العذابِ، ونسبةُ التّنزيلِ ههنا إليه ﷺ مع نسبة إتيانِ الآياتِ، ومجيءِ الحقِّ فيما سبق إليهم؛ للإشعار بقَدْحِهم في نبوّته ﷺ في ضمن قَدْحِهم فيما نزل عليه صريحًا[1].

ويجوزُ أن تكونَ الواو عاطفةً، والمعطوف عليه جملة: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الآية، وما بينهما جملًا تعلَّقَت بالجملة الأولى على طريقة الاعتراضِ، فلمّا ذكرَ الآياتِ في الجملة الأولى على وجه العمومِ، ذكر هنا فرضَ آيةٍ تكون أوضحَ الآيات دلالة على صدق محمّد ﷺ، وهي أن يُنزِلَ اللّهُ عليه كتابًا منَ السّماء على صورة الكتبِ المُتعارَفَةِ، فَرَأوهُ بأبصارِهم، ولمسوهُ بأيديهم - لما آمنوا ولادَّعَوا أنّ ذلكَ الكتابَ سحرٌ[2]. ويجوزُ أن تكونَ الواو للحال من ضمير ﴿كَذَّبُواْ﴾ في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: أنكروا كونَ القرآن من عند اللّهِ، وكَوْنَه آيةً على صدق الرّسولِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/112.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/141.

وزعموا أنّه لو كانَ من عند اللّهِ لنزلَ في صورة كتابٍ منَ السّماء، فإنّهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: 32]، وقالوا: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: 93]، فكان قولُه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ مُشتمِلًا بالإجمال على أقوالهم، فَصحَّ مجيءُ الحالِ منه، وما بينهما اعتراض[1].

معنى استعمال (لو) في ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا﴾:

الـدَّلالـةُ على الامـتـنـاع بـأنَّ إنزالَ الكتابِ، لا يصحُّ أن يصدرَ عنه تعالى

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾، صدّر الآيةَ بعدَ العطفِ بالحرفِ (لو)، والّتي سمّاها سيبويه لما "كان سيقعُ لوقوع غيره"[2]، "حرف امتناع لامتناع؛ أي: أنّ اللّه سبحانه يمتنعُ عن أن يفعلَ ذلك، لأنّه عبثٌ لا يليقُ أن يصدرَ عن ذاته العليّة؛ إذ لا ثمرةَ له، فلن يؤمنوا مهما تكن قوّةُ الدّليل"[3]، وهو تعبيرٌ دقيقٌ؛ لأنّ هؤلاء لن يؤمنوا، فكانت ﴿وَلَوْ﴾ مُعبِّرةً عن حالتهم خيرَ تعبيرٍ؛ لأنّ قلوبَهم مُشربةٌ بالضّلال ومُتمكِّنةٌ فيه.

وجهُ مجيءِ الفعلِ ﴿نَزَّلْنَا﴾ على صيغة (فعَّل) بالتَّضعيف:

الدَّلالةُ على كثرة الـتـنـزُّل لقطْعِ الحجَّةِ عليهم

مجيءُ الفعلِ ﴿نَزَّلْنَا﴾ على زِنة (فعّلنا) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ يفيدُ تكثيرَ الفعلِ غالباً[4]، ومجيئه على هذه الصّيغةِ الدّالّةِ على المبالغةِ يفيدُ "أنّ هؤلاء الكفّار لو أنّهم شاهدوا نزولَ كتابٍ منَ السّماء دفعةً واحدةً عليك يا محمّد ﷺ لم يؤمنوا به، بل حملوه على أنّه سِحْرٌ ومَخْرَقَةٌ"[5].

نُكتَةُ إسنادِ فِعلِ التَّنزيلِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ في قَولِه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا﴾:

الإيـمـاءُ إلى عَـظَـمَـةِ الـتَّـنـزيلِ ومُتَعَلَّقاتِهِ

أُسنِدَ فِعلُ التَّنزيلِ إلى الضَّميرِ (نا) الدّالِّ على العَظَمةِ في قولِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/141.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/224.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2441.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/69.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/169.

اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَبًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ إيماءً إلى عظمَةِ هذا التَّنزيلِ ومُتعلَّقاتِه؛ مِن بيانِ جلالَةِ المُنَزِّلِ سُبحانَهُ، وشرفِ المُنَزَّلِ، ورفيعِ مكانَةِ المُنَزَّلِ عليه ﷺ.

سِرُّ تَنكِيرِ ﴿كِتَبًا﴾ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿كِتَبًا فِي قِرْطَاسٍ﴾:

تَعظِيمُ الكِتابِ، يَستَلزِمُ شَناعَةَ تَكذِيبِهِ

نُكِّرَ لفظُ ﴿كِتَبًا﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَبًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ لِقَصدِ التَّفخيمِ والتَّعظيم، كما يُشعِرُ بِذَلِكَ تعظيمُ المُنَزِّلِ في قَولِه: ﴿نَزَّلْنَا﴾، وهذا التَّعظيمُ لِلكِتابِ المُنَزَّلِ دالٌّ على شدَّةِ عنادِ المُكذِّبينَ؛ فإنَّ العظَمَةَ أحاطَت بالتَّنزيلِ وتوابِعِهِ، ومعَ ذَلِكَ قابَلوا ذَلِكَ بالجُحودِ والإنكارِ.

دلالةُ التَّعبيرِ باللَّمسِ دونَ المعاينةِ:

دفْـعُ افترائِهـم بأنَّـه مِـن سِحرِ النَّظرِ

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، عبّر عنِ الكتابِ المشتملِ على الآيات، ولم يعبّر بالنّظر إليه ومعاينته فقط؛ "لئلّا يقولوا سُكِّرَت أبصارُنا، ولا تبقى لهم علّةٌ، لقالوا: إن هذا إلّا سحرٌ مبينٌ تعنُّتًا وعنادًا"[1]؛ لأنّ السّحرَ يكون أشدَّ فعلاً ووقعاً مع النّظر؛ فإنّ البصرَ قد يُخدَعُ بالسّحر والتّخيّل؛ ولقوله تعالى حكايةً عن سحرة فرعون: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: 116]، ولا تكونُ المظاهرُ السّحريّةُ ممّا يُدرَكُ باللّمس؛ ولأنّ اللّمسَ أبلغُ في إيقاعِ العلمِ منَ النّظر.

فائدةُ ذكرِ الأيدي بعدَ اللَّمسِ:

تأكيـدُ النُّـزولِ، ورفْـعُ توهُّـمِ أن يكـونَ مـن بـاب المجازِ

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ذكرَ الأيدي بعدَ اللّمسِ، مع أنّ اللّمسَ عادةً يكونُ بالأيدي، لكنْ في ذكره هنا "تأكيدٌ لمعنى اللّمسِ؛ لرفع احتمالِ أن يكونَ مجازًا في التّأمّل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ [الجنّ: 8]،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/325.

وللإفصاح عن مُنتهى ما اعتيد من مكابرتهم ووقاحتهم في الإنكار والتَّكذيب"[1].

سرُّ الإظهارِ في مقام الإضمارِ:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دونَ أن يقولَ: (لقالوا)، على سبيل الإضمارِ والاختصارِ، كما قال: ﴿فَلَمَسُوهُ﴾: إظهارًا في مقام الإضمارِ؛ لقصد تسجيلِ أنّ دافعَهم إلى هذا التّعنُّتِ هو الكفر؛ لأنّ الموصولَ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يُؤْذِنُ بالتّعليل[2].

التَّسجيلُ عليهم بأنَّ دافعَهم إلى هذا التَّعنُّتِ، هو الكفرُ

دِلالَةُ العموم في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن قَولِهِ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

الاسم المَوصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قَولِ الله ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يُرادُ به الجِنسُ المفيدُ العُمومَ؛ فهي شامِلَةٌ كُلَّ معانِدٍ ممَّن كَفَرَ باللهِ تعالى، فهم لا يَنقادونَ لِلحَقِّ، ولَو كانَ في غايَةِ الوُضوحِ.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بِالفِعلِ المَاضِي ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ في الآية الكريمة:

جيءَ بِجُملةِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ لِلإشعارِ بِحُدوثِ الكُفرِ وتحقُّقِه فيهم وتشبُّعِهم منه.

سِرُّ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الكُفرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وهو الأمرُ الّذي كُفِرَ بِهِ، وذلك قصدًا لِإرادَةِ العُموم؛ إذْ إنَّ حَذفَ المُتعلَّقِ مُشعِرٌ بِالعُموم، والمعنى: كَفَروا بِجَميعِ ما وجبَ عليهم أن يُؤمِنوا بِهِ شَرعًا.

كُفرُ المُكَذِّبِينَ بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ شَرعًا

دِلالَةُ القَصرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أسلوبُ قَصرٍ، وطريقُهُ النَّفيُ والاستِثناءُ؛ فإنَّ (إنْ) نافيَةٌ، والمَعنَى: لقال الّذين كفروا ما هذا إلّا سِحرٌ مُبينٌ، وفي سلوكِهِم مسلَكَ

بُلوغُ الكافِرِينَ غايَةَ العِنَادِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/142.

القصرِ في الكلامِ تأكيدٌ مِنهُم لحُكمِهم الباطِلِ، وهذا ناشئٌ عَن غايَةِ عنادِهم.

دِلالَةُ وَصفِ السِّحرِ بِكَونِهِ مُبِينًا في الآية الكريمة.:

مَـن بَـلَـغَ غـايَـةَ العِنَادِ، لا يَنفَعُ فِـيـهِ مُـعـجِـزَةٌ، ولا يُـجدِي مَعَهُ دَلِيلٌ

وُصِفَ السِّحرُ بكونِهِ مُبينًا في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، ومُرادُهُم: أنَّه بيِّنٌ واضِحٌ في كَونِهِ سِحرًا، وهذا دالٌّ على أنَّ تبجُّحَهُم بالتَّكذيبِ بلغَ الغايَةِ، وأنَّ مكابرتَهُم كذَّبَت ما شهِدَت حواسُّهُم بصِدقِهِ، والقومُ الّذينَ بلَغوا هذه الدَّرجَة مِنَ العنادِ والمكابَرةِ لا تَنفَعُ فيهم معجِزَةٌ، ولا يُجدي معَهُم دليلٌ[1].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/41.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»